التعليم الإلزامى

ومهمته التهذيبية

للكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل بك

تواضع الناس على القول بأن الغاية من التعليم الإلزامى محاربة الأمية ، وهذه لا ريب غاية أساسية من غاياته ، لكنها ليست كل الغاية منه ، بل إن له إلى جانب ذلك لغاية تهذيبية لا تقل فى جلال خطرها عن محاربة الأمية ، والمعلم الإلزامى الذى تفوته هذه الغاية التهذيبية ، والذى يتصور أن تعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وما إلى ذلك مما يدرس فى المدارس الإلزامية ، هو كل شىء وكل ما يطالب هو به إزاء من يقفون ، يفسى الغاية التى من أجلها تحارب الأمية ويعلم الناس ، فكل تعليم أيا كانت درجته ، يجب أن تكون غايته تهذيبية ، مقصوداً بها ترقية النفس وتعويدها إدراك أسمى معانى الحياة .

والغاية التهذيبية فى التعليم الإلزامى تحتاج إلى توجه المدرس نحوها بكل روحه وبكل قوته ، وخير ما يعاونه على النجاح فى بلوغ هذه الغاية المثل يضربه بنفسه لتلاميذه ، والعبرة يستخلصها لهم من كل ما يرون ، ومن كل ما يستمعون له ، وهو يكون لا ريب أدنى إلى النجاح ، كلما كان مثله ، وكلما كانت العبر التى يستخلصها أشد اجتذاباً لنظر تلاميذه ، وتشويقاً لهم على اتباعها ، والأخذ بها ، والتعود عليها ، ذلك بأن الطفل سريع إلى التقليد بطبعه ، ما دام يجد فى المثل الذى أمامه ما يشوقه لتقليده ، فإذا رأى فى أستاذه مثلا تهذيبياً شيقاً يدله على أن معانى الحياة السامية ، لا مشقة على النفس فى الاتجاه نحوها . وأن هذه الغاية تخلق للنفس أنساً وللقلب مسرة ، احتذى هذا المثل وحمل غيره من زملائه على احتذائه

فأما من يدل مثله على أن الحياة عبء شاق وعلى أن الوصول لمعانيها السامية عبء أكثر مشقة ، فيجعل التلاميذ ينصرفون يجنون فيما حولهم عن مثل آخر يهون عليهم هذه المشقة ، ليكن هذا المثل سيئاً وليكن بعيداً عن كل معنى تهذيبى ، فالطفل يقلده ويتبع آخر الأمر به ، وهنا يكون المدرس قد فشل فى مهمته أكبر فشل ، وإن نجح فى محاربة الأمية وتعليم تلاميذه ما يقتضيه البرنامج أن يعلمه إياه .

أذكر أيام الطفولة سيدة كان لها فى حياة قريبة بأسرها أثر صالح عظيم ، كانت هذه السيدة ما تكاد تسمع بمرض رجل أو امرأة أو طفل فى البلد ، حتى تبعث واحداً من

أبنائها أو بناتها أو ذوى قرباها يتعرف الخبر ، ويسأل عن المريض ، ويواسى أهله

ويسألهم ما هم بحاجة إليه ، وما أقل حاجات أهل الريف فى صحتهم وفى مرضهم ، وما كان أسرع هذه السيدة إلى إجابتهم إلى ما يطلبون ، وإرساله إليهم مع واحد من أطفالها أو ذوى قرباها ، هذا المثل الطيب الساذج ، كان ذا أثر تهذيبى عظيم جداً فى القرية كلها ، وهو بعد مثل بسيط غاية البساطة ، صادر عن سيدة لا تقرأ ولا تكتب ، مثل هذا المثل كثير ، يستطيع المعلم الإلزامى أن يضربه لتلاميذه ، وأن ينمى بذلك فيهم ملكات صالحة فيقضى على غرائز الشر والفساد . وأن يضربه بطريقة عملية لا بمجرد الأقوال يتلوها عليهم ثم لا يرون لها أثراً ، فهو يستطيع أن يعودهم التعاون منذ نعومة أظفارهم ، وأن يهذب بذلك فيهم غريزة الأنانية وحب الذات ، وهو يستطيع أن يهذب عواطفهم بمثل هذا الذى كانت تفعل هذه السيدة التى قصصنا هنا حكايتها ، بأن يذهب بنفسه فيسأل عن المريض من تلاميذه ويطلب إلى الآخرين أن يسيروا على منواله ، وهو يستطيع أن يكون مثلهم فى البر والتقوى ، حتى لا ينشأوا على الأثم والعدوان ، وهذا كله لا يدخل فى محاربة الأمية كغاية لتعليم الإلزامى ولكنه يدخل فى الغاية التهذيبية منه ، وكما يجب أن تتجه عناية المعلمين الإلزاميين إلى هذه الغاية ، فمن الواجب أن يمتد كذلك إليها إشراف وزارة المعارف والمشرفين على التعليم الإلزامى جميعاً .

وليس يتسع هذا المقال لأكثر من الإشارة إلى هذه الغاية تلك الإشارة الموجزة ، ولكن لا يسعنى أن أغفل توكيد هذه الغاية وجلال خطرها ، حتى لأعتبر كل مدرس لا يضعها فى المحل الأول من عنايته غير صالح للقيام بمهمته . وإنى لأشعر بأن المدرسين جميعاً يوافقوننى فى هذا ، كما أشعر بأن هذا الموضوع جدير بعناية كبيرة من وزارة المعارف ومن المشتغلين بأمور التربية جميعا ، وإذا أمكن أن اتفق الرأى عليه بين الألوف من رجال التعليم الإلزامى كان من أثر ذلك توحيد التهذيب القومى مما يدعو إلى مزيد من توثيق أواصر التفاهم والألفة بين أهل الأمة جميعا ، وهو بعد يحقق غاية أساسية سامية ، هى تمويد الناس كما قدمنا التوجه إلى ناحية المثل العليا للحياة بقدر ما يستطيعون إدراك هذه المثل ، وفى هذا سعادتهم وسعادة كل من يحيطون بهم .

ليذكر المعلمون الإلزاميون هذا وليذكروا معه مالا يزال حتى اليوم الاعتقاد السائد بين الناس ، من أن الذين يتعلمون التعليم الأولى من أبناء الريف هم سبب فساد قرائهم بما ينشرون فيها من أسباب المشاغبات وما يلفقون من بلاغات كاذبة وشهادات مزورة . وما كان لذلك الاعتقاد من أثر سيئ فى تقدير الناس للتعليم الأولى وهم متى ذكروا هذا . قدروا أهمية الغاية التهذيبية من واجبهم وعملوا بكل ما أوتوا من قوة ، للقضاء على هذا الاعتقاد ، ولبث الغايات السامية من الحياة فى النفوس .

محمد مصطفى كامل